الخطاب الحجاجيّ القرآني في آيات البقرة ٢٥٨-٢٦٠

عائشة بنت عبدالله السيفية

أولًا: المقدمة

تشكل التداولية جسر التواصل بين اللغة والخطاب، تهتم بجميع أشكال التفاعل الاجتماعي والخطابي. كما تهتم التداولية بالعملية التواصلية في جميع أبعادها النفسية والاجتماعية والدينية والتأريخية؛ وعلى ما تقدم تبدو لنا التداولية بحرًا صعب الولوج؛ فقد تشعبت تخصصاتها وكثرت استعمالاتها وسياقاتها.

لن أقف طويلا في هذا البحث عند التأريخ لمصطلحي التداولية والحجاج، فليس المقام مقام بسط وتأريخ، بل سأكتفي بتعريفات بسيطة للتداولية وأذكر مهامها الوظيفية، ومن ثَّمّ ألج إلى المقاربة التداولية ؛ فأعرف مصطلحها (المقاربة التداولية) ثم أذكر أنواعها لأستطيع بعدها أن أحلّل نصًا تداوليا حجاجيًا في سورة البقرة الآيات (٢٥٨-٢٦٠)، وقد جاءت أقسام البحث كالتالي:

أولا: المقدمة

ثانيًا: التداولية ؛ تعريفها، وموضوعها،ومهامها

ثالثًا: التداولية المعرفيّة والمنهج التداولي المعرفي

رابعًا: مقاربة تدوالية في (الخطاب الحجاجيّ القرآني في آيات البقرة ٢٥٨-٢٦٠)

خامسًا: الخاتمة

سادسًا: ثبت المراجع

ثانيًا: التداولية ؛ تعريفها، وموضوعها،ومهامها

تكاد تتفق الدراسات التداولية على تعريف مصطلح التداولية بأنها دراسة استعمال اللغة في سياق معين[١]. ونستطيع أن نعرف التداولية على أنها: «نسق معرفي استدلالي عام يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظيّة، والخطابات ضمن أحوالها التخاطبية[٢]. وليس ثمة اختلاف بين هذه الدراسات أيضًا في أن بذور (التداولية) كانت في الثلاثينيات من القرن الماضي وللآن لم تصل إلى النضج البحثي ووضوح المجالات، ولا تزال الأبحاث تأتينا كل يوم بالجديد في تفريعاتها ومجالات تطبيقها.

يمثل الإنسان (موضوع التداولية) وهو يباشر أدواره الاجتماعية[٣]، كما تشكل استعمالات اللغة أداة التواصل بين المتخاطبين، ولسنا نشك لحظة في أن الوظيفة التواصلية التفاعلية للغة تستلزم وجود السياق اللغوي أولا فتدرسه، وتدرس أبعاد العملية التواصلية في كل أبعادها النفسية والاجتماعية والإيديولوجية، كما تدرس العلاقة بين اللغة والسياق[٤].

تتلخص مَهامّ التداولية «في دراسة (استعمال اللغة) ولا تدرس التداولية (البنية اللغوية) ذاتها، ولكن تدرس اللغة حين استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، باعتبار اللغة كلاما محددا صادرا من متكلم محدد وموجها إلى مخاطب محدد بلفظ محدد في مقام تواصليّ محدد لتحقيق غرض تواصليّ محدد»[٥].

ليست التداولية (حقلا فرعيا) جديدا يحدد موضوعا للدراسة جديدا، بل هي مقاربة جديدة تتأسس على تعددية منهجية (ذهاب وإياب استنتاجي/تأليف) لكامل الحقل[٦]. ترتبط التداولية ب (المعرفة) العميقة أو هي خاصيتها الأساسية؛ فهي المعرفة العميقة بالعلاقات القائمة بين الأشياء والظواهر والأفكار والأحداث والوقائع، وهي المعرفة

العميقة بعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالعالم٧.

تنظر التداولية إلى النص باعتباره حدثًا تواصليًا تتحقّق به الوظائف الدنيا في تبادل البسيط من المعلومات والوظائف المعرفية العليا من إنتاج للمعرفة والثقافة، ونحتاج إلى النص حاجة حتمية من زاويتين: تواصليّة مخصوصة وتفاعليّة عامّة، شرط هذا كله قيام النصّ على الانسجام بنوعيه الإحاليّ والعلائقيّ. يكون الإحالي باستمرار الإحالة واستقرارها على عدد من المفاهيم أو المراجع في كامل أجزاء الخطاب، وذلك بأدوات مؤشرة تيسّر المعالجة الذهنيّة بتوجيهها أو بقيادتها، ويكون الانسجام العلائقي بالترابط الدلالي بين مختلف المفاهيم مفردة أو مجموعة، في مختلف مقاطع الخطاب، وهي روابط منطقية دلالية منها ترابط السبب بنتيجته، أو ترابط الأبعاض بالكل وما إلى ذلك؛ فانسجام النص في المجمل قائم على الترابط ما بين العناصر في النصّ، وما بين النصّ والخلفية المعرفية العامّة يقوم له تمثيل ذهنيّ منسجم٨.

ثالثًا: التداولية المعرفيّة والمنهج التداولي المعرفي

قلنا تحت العنوان السابق أن التداولية ترتبط بالمعرفة العميقة أو هي خاصيتها الأساسية، وبناءً على هذا فإن المنهج التداولي المعرفيّ «عبارة عن تداخل متكامل ومنسجم بين مجموعة من المناهج والنظريات أبرزها العلم المعرفي (الذي انبثقت عنه التداوليات المعرفية) واللسانيات المعرفية (الجيل الثالث للسانيات) وهذا المنهج عبارة عن توظيف مجموعة من آليات ومفاهيم وطرائق العلوم النظرية العلمية كالمنطق والمعلوميات والعلوم الاجتماعية أو الإنسانية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم السياسة وغيرها»٩.

يذكرني ما ذكرته المراجع أعلاه بالنظرية العلمية التعليمية التي تفترض وجود (المدخلات) التي تمثل الأهداف ثم (عمليات المعالجة) وتشمل عمليات التحليل والتركيب وغيرها لتنتج لنا (المخرجات) وتمثل الجوانب المعرفية والمهارية المكتسبة، وبهذا نكون أمام منهج علمي محكم يؤدي أوله إلى آخره.

يتميز المنهج التحليلي في التداولية الذي يسمّى (المقاربة) التداولية بالتعددية المنهجية المرتبطة بالسياق لارتباطه بأساس فهمنا للنص وتأويلنا لمعانيه ودلالاته؛ فيكون على هذا مجال المقاربة مفتوح كذلك لأن مجال المقاربة يتحدد في ما وراء البنية النصيّة، فتتجاوز بنية النص المغلقة على الأصوات والصرف والتركيب إلى الخطاب كبنية منفتحة على سياقات خارجية في علاقة تفاعلية مشتركة١٠، وهكذا نستطيع القول كما قال بلانشيه: إن المقاربة التداولية هي «علم المواضع السياقي»؛ فهي (الطوبيقا السياقية)، والطوبيقا كلمة إغريقية تعني (علم المواضع)١١. يذكر براون ويول إن العناصر السياقية يمثلها: «التكلم ، المخاطب، الرسالة، الزمان، المكان، ونوع الرسالة(...)»١٢ .

يعدّ المنهج التداولي المعرفي تداخلا متكاملا ومنسجما بين مجموعة من المناهج والنظريات، أبرزها العلم المعرفي الذي انبثقت عنه التداوليات المعرفية ، واللسانيات المعرفية (الجيل الثالث للسانيات)، والمنهج عبارة عن توظيف مجموعة من الآليات والمفاهيم والطرائق من العلوم النظرية العلمية كالمنطق والعلوم الاجتماعية أو الإنسانية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها١٣.

تشتغل النظرية التداولية على مستويين تحليليين١٤؛ فالأول هو المستوى الذهني، ويتعلق بالمعلومات من مثل: الاستقبال والتخزين والربط وغيرها، وكل ما هو مرتبط بالأنظمة القالبية المتخصصة أي الفهم الحرفي. بهذا نكون أمام نظام تأويلي مشكل من طابقين:

١- لساني قالبي يغطي ميادين الفونولوجيا والتركيب والدلالة وهذا يوافق الفهم الحرفي للنص.

٢- مركزي معرفي يتكفل بالتأويل التداولي للقول وهذا يوافق التأويل الكامل.

والآخر هو المستوى المعرفي، ويتعلق بالمعطيات الداخلية (الذاكرة والمراكز الخلفية)، والخارجية (السياقات

والمقامات والظروف العامة للقول) وكل ما هو مرتبط بالتأويل؛ ويرتبط هذا المستوى بمجموعة مفاهيم تتم معناه التداولي:

١- التأويل ونظرية الإصابية: تعتبر الإصابية مفهوما ذا خصوصية سيكولوجية، يعمل على اختيار ما يأخذ باهتمام المتخاطبين وما يؤثر فيهم من أقوال وحجج، ولا تتطلب الإصابية معرفة سابقة من طرف المتخاطبين، فهي نظرية التأويل هدفها الرئيس هو (وصف كيف؟) ولماذا يؤول قول بطريقة اختيارية معينة (أي تلائم هذا الشكل ولا تلائم الآخر)

٢- التأويل والسياق: ليست المعلومات الخاصة بالمفاهيم بل تتدخل إلى جانب تأويل الأقوال المباشرة المعلومات المرتبطة بالمحيط الفيزيقي الذي يأخذ فيه التواصل مكانه،وهي معلومات متراكمة للذاكرات الثلاث: ذاكرة العمل (توافق السياق الآني)، وذاكرة تأويلات الأقوال المباشرة(تتراكم فيها التأويلات)، وذاكرة المعلومات المفهومية.

٣- التأويل والآثار السياقية: تنتج الآثار السياقي عملية التأويل انطلاقا من المقدمات (الأشكال المنطقية للأقوال) وانطلاقا من القضايا التي يتكون منها السياق، ويمكن إجمالها في ثلاثة أنواع:

أ- التضمينات السياقية: تشكل النواتج الجديدة التي نحصل عليها من الأقوال والسياق معًا.

ب- إعادة تقييم المعلومات التي يحصل عليها الإنسان من قبل إذ يمكن تغييرها بتعديل أو تأكيد ما كان يعتقده الإنسان.

ت- إلغاء القضية الضعيفة في الحالات التي تتناقض فيها القضايا الموجودة في الذاكرة انطلاقًا من التضمين السياقي.

رابعًا: مقاربة تداولية في (الخطاب الحجاجيّ القرآني في آيات البقرة ٢٥٨-٢٦٠)

لن نقف مع الحجاج ومعناه اللغوي أو الاصطلاحي؛إذ إن الكلام حوله كثير والمصطلحات المتعلقة به كثيرة١٥ ، وسنكتفي بهذا التعريفين الاصطلاحيين: يعرف الحجاج على أنه: «وسيلة من وسائل الإقناع يتوسل بها المرسل للتأثير على المتلقي أو دحض آدائه أو حتى تغيير سلوكه، فبواسطة الحجج المستعملة نُدرك شخصية ومنزلة وإمكانات هذين القطبين (المرسل والمتلقي)»١٦ كما يُعرّف الخطاب الحجاجيّ: « هو خطاب موجه، وكل خطاب موجه يهدف إلى الإقناع يكون له بالضرورة بعد حجاجيّ»١٧.

تعتبر التداولية الحجاجيّة (الاستنتاجية) مقاربة تداولية من مقاربات تحليل الخطاب، تقتضي المقاربة الحجاجيّة مجموعة من المفاتيح١٨:

١- إرضاء العقل: يكون بتقديم خطاب واضح يوافق منطقه الداخلي الحاجيات العقلانية للمخاطَبين.

٢- معرفة الفضاء: يكون بتحليل الوضعية العامة عن طريق معرفة الطبيعة الداخلية للمخاطبين (شعورا وانتظارات ومواقف)، ومعرفة المسافة التي تغطي عملية التخاطب (زمانا ومكانا) وطبيعة الفضاء الذي يجري فيه الخطاب ومعرفة الأشياء التي يمكن إبرازها والأشياء التي يجب التلميح إليها وما يعترض عليه وما يضمه السياق.

٣- إرضاء الآخر: تقتضي معرفة طبيعة الموضوع معرفة اهتمام المخاطب به ومصلحته في ذلك ونوع المعرفة التي يكونها حوله (درجة معرفة الموضوع لدى المخاطب)، ومدى استفادته من الموضوع والأهداف التي يتوخاها والحوافز التي يقدمها والمعتقدات التي يتضمنها والمواقف الإيدلوجية والثقافية والثوابت المبدئية التي ينطلق منها ودرجات اهتمام المخاطب بمكونات الموضوع ومضمونه ومدى مصداقية الخطاب في عملية التخاطب؛ من أجل تحقيق أهداف الخطاب الملموسة أو العقلانية التي تؤكدها الوقائع والحقائق أو المواقف والقواعد والأخلاق.

يقول تعالى في سورة البقرة (٢٥٨-٢٦٠):

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ

كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾٢٥٩﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾٢٦٠﴿

أولا: بنية (الخطاب الحجاجيّ القرآني في آيات البقرة ٢٥٨-٢٦٠)

١- الأفعال الإنجازية:

يعرف(أوستن) الفعل الإنجازي بأنه ما نقوم به خلال كلامنا، ويعرفه فان دايك بأنه كل حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني١٩. وقد جاءت الأفعال الإنجازية في هذه الآيات الثلاث مباشرة في أغلبها ومعنى المباشرة هو (مطابقة الألفاظ للمعاني) وجاء بعض منها بمعنى غير مباشر (استعارة أو كناية)، ومن الأفعال المباشرة التي ليست بحاجة إلى تأويل:

- قوله تعالى: «آتاه الله الملك، إن الله يأتي بالشمس من المغرب، فأت بها من المغرب» الآية ٢٦٠.
- قوله تعالى: «أو كالذي مر على قرية، فأماته الله مائة عام، ثم بعثه، انظر إلى طعامك، وانظر إلى حمارك، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما، فلما تبين له» ولعل هذه الحقائق قد أكدها قوله تعالى : «واعلم أن الله على كل شيء قدير».
- قوله تعالى: «أرني كيف تحيي الموتى، أولم تؤمن؟ قال: بلى، ليطمئن قلبي»، وقوله: «ثم ادعهن يأتينك سعيا» تعبير حقيقي دل عليه تذييل الآية بقوله تعالى: «واعلم أن الله عزيز حكيم».

في رأيي فإن ما تقدم قد طلب حصوله حقيقة دون تضمين لمعنى آخر يقتضيه السياق؛ فدلت هذه الألفاظ على معانيها مباشرة ، فهي مقصودة لذاتها.

وكما يبدو لي فإن هذه الأفعال تنتمي إلى ما يمكن أن يسمي عند أوستن ب (التبيينات) وهي النوع الخامس من تقسيماته للأفعال الكلامية «توضح علاقة القول بالمحادثة أو المحاجّة» وهي أثبت، أنكر، اعترض، شرح، وصف...٢٠. يترجم الحباشة هذا النوع الخامس بالعرضيات، ويقول بأنها تختص بالعرض مثل: التأكيد والنفي والوصف والإصلاح والذكر والمحاجة والقول والتأويل والشهادة والنقل والتوضيح والتفسير والتدليل والإحالة» ٢١.ومهما يكن من ترجمة لهذا المستوى من الأفعال فإن هذه الأفعال تتناسب مع الأفعال الواردة في الآيات لأنها توضح معرفة قائمة على هذه الأفعال.

تتضمن هذه الأفعال المباشرة أربعة أنواع من الأفعال في الوقت نفسه:

١- فعل القول: وهو فعل التلفظ بالكلمات والجمل

مثاله: « أرني كيف تحيي الموتى»، «أنى يحيي هذه الله بعد موتها»

٢- فعل الإسناد: يربط الصلة بين المرسل والمرسل إليه أو بين المحاجّ والخصم (السامع- القارئ)، أي يسند معنى القول إلى الطرف الآخر بغية تغيير منظور بمنظور جديد:

مثال: «واعلم أن الله على كل شيء قدير»، « واعلم أن الله على كل شيء قدير»

٣- فعل الإنشاء: يتحقق فعل الإنشاء في القصد المتضمن في القول

مثاله: إنكار و إثبات في قوله تعالى: «إن الله يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت»

ومثاله: اعتراض وشرح «أنّى يحيي هذه الله بعد موتها» ، «فانظر إلى طعامك ...وانظر إلى حمارك»

٤- فعل التأثير: يتوقف التأثير على المعنى الذي يعطى للقول، تزيد الحجج إيضاحا وتبلغ من التأثير حد الإقناع:

مثاله: «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه «(حجة أولى)

«وانظر إلى حمارك» (حجة ثانية)
«ولنجعلك آية للناس» (حجة ثالثة)
ومن الأفعال غير المباشرة:

- قوله تعالى: «أولم تر»؛ إذ الرؤية هنا لا تعني الرؤية الحسية بالعين الباصرة وإنما دلت على العلم والمعرفة٢٢، وقوله تعالى: «فبهت الذي كفر» هنا كناية عن تأثير الحجّة على الملك إذ أنها ألجمت فاه عن الحديث فقد كانت الحجّة مسكتة، وقوله تعالى: «خاوية على عروشها» تعبير يكنى به عن الخراب والدمار اللاحق بالمكان؛ فجميع ما عرضت من أفعال غير مباشرة يحتاج إلى تأويل.

٢- الروابط الحجاجيّة:

رسالة المرسل (مدار الحجاج)	الرابط	الحجّة
١- إن الله يحيي ويميت	الفاء	- فإن الله يأتي بالشمس من المغرب - فأت بها من المغرب
٢- أنى يحيي هذه الله بعد موتها	الفاء الواو الواو واللام معا	-فأماته الله مائة عام، فانظر إلى طعامك - وانظر إلى حمارك - ولنجعلك آية للناس
٣- أرني كيف تحيي الموتى	الفاء جملة الطلب وجوابه	- فخذ أربعة من الطير - فصرهن إليك - ادعهن يأتينك سعيا

لم يتجاوز عَدّ الروابط في الآيات أربعة روابط هي (الفاء والواو، والواو واللام معا، والطلب وجوابه)، وهي كافية – بلا شك- في توثيق عرا الحجاج وإيصال الرسالة إلى المرسل إليه؛ أولها: الفاء، وهو حرف يربط السبب بالنتيجة، وهي هنا قامت بهذه الوظيفة تعليلا وتفسيرا؛ وثانيها: الواو العاطفة التي جمعت حجتين معا في الحكم، وثالثهما: الواو واللام معا، الأولى للجمع في الحكم السابق والأخرى للتعليل والسببية، ورابعهما: جملة الطلب وجوابه المعطوفة ب(ثم) على ما قبلها من حجج تدل على تحقق وقوع الحجّة.

كما تربط بين قصة تحمل حججا وقصة أخرى تأتي قبلها أو تربط سياق هذه الحجج الثلاث بما قبلها من سياق روابط حجاجيّة كبرى:

- ألم تر: ربطت الثلاث قصص بما قبلها من سياق وهو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾٢٥٧، ولعل في هذا الربط تفصيل القول في أولئك الذين آمنوا ومثله إبراهيم عليه السلام في آيات الحجاج، وتفصيل القول أيضا في أولئك الذين كفروا ومثاله النمرود (الملك).
- أو+كاف التشبيه: ربطت بين قصة إبراهيم وقصة المارّ على القرية، وقد أفادت التركيب ب(أو) والكاف العطف مع التمثيل.
- وإذ: ربطت بين قصة ذي القرية مع قصة إبراهيم الثانية، وأفادت التعليل.

أنتقل الآن من بنية الخطاب الحجاجيّ التداولي في الآيات إلى الخصائص الحواريّة للخطاب الحجاجيّ التداولي في الآيات نفسها.

الخصائص الحوارية للخطاب الحجاجيّ التداولي في الآيات نفسها:

أولا: في القصة الأولى:

- بدأ الحجاج باستفهام تقريري (ألم تر) الذي يعني الإقرار بالعلم
- ثم تلا ذلك لفظة صريحة في الحجاج (حاجّ)
- ثم ذكر سبب هذه المحاجة (إتيان الملك) وما يصحبه من جبروت
- ثم تلاه حوار يبدأ بقول لإبراهيم بإقرار الإحياء والإماتة لله وحده
- يعقبه رد الملك بأنه هو من يحيي ويميت
- ثم ساق إبراهيم له الحجّة وهي (برهان طبيعي)على صدق الربوبية والقدرة وهي حقيقة أن يأتي الله بالشمس من المشرق
- تحداه إبراهيم بأن يأتي بالشمس من المغرب، فإن استطاع ذلك فهو إذًا إله
- فما كانت النتيجة إلا أن بُهِت الذي كفر وأكد هذا البهتان بقوله (والله لا يهدي القوم الظالمين).

ثانيا: في القصة الثانية:

- بدأت القصة بحرف العطف تلاه التشبيه (أو كالذي) عطفًا وتشبيها لها بالقصة الأولى في الفكرة نفسها.
- ثم وصف لأفعال عُزير ووصف للقرية
- ثم طرح سؤاله مفتاح الحجاج (أنى يحيي هذه الله بعد موتها)
- ثم بعدها أحدث الله آليات الحجاج الإلهية وأدلته: أولها: إماتته ١٠٠ عام، وثانيها: بعثه؛ ليقيم عليه الحجة تطبيقًا عمليًا دالًا على القدرة
- فتمثلت نتائج الحجاج الحقيقية في أدوات حسية يملكها عزير نفسه هي الحمار الذي أصبح عظاما بالية، وطعامه وشرابه الذي لم يتغير، بل وفي نفسه فقد أصبح في زمن غير زمنه الذي كان يعيش فيه، وبعدها تبين أي ظهر له الأمر عمليًا جليًا ظاهرًا في قدرة الله على الإماتة والإحياء.
- ختمت القصة بأسلوب الإقرار بقوله (أعلم أن الله على كل شيء قدير).

ثالثًا: في القصة الثالثة:

- بدأت القصة بطلب إنشائي (أمر: أرني) غرضه بعد أسلوب نداء(رب أرني كيف تحيي الموتى) من إبراهيم لربه
- سؤال الله له (أولم تؤمن؟)
- جواب إبراهيم بإثبات الإيمان واستدراكه بالتعليل باللام (بلى، ولكن ليطمئن قلبي)
- ثم قول الله بإحداث بعض أسباب الإحياء والإماتة كانت حججا عملية (ضمن بنية الاستدراج)٢٣يقوم بها إبراهيم عليه السلام بيده ليعاين مشهد الإحياء عيانًا بعدها(خذ أربعة من الطير- صرهن أي قطعهن- ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا- ثم ادعهن يأتينك سعيا) وكلها إنشاءات طلبية لفعل الأمر
- نتيجة الحجج (واعلم أن الله عزيز حكيم)

ملامح عامة للحجاج في القصص الثلاث:

١- تسلسل الحجاج وتدرجه من الذهني (قصة النمرود) إلى الحجاج (المعاين بفعل الله) إلى الحجاج التطبيقي التجريبي (بفعل إبراهيم وإنفاذ الله أمره).

٢- تسلسل الحوار من الأدنى إلى الأعلى فقد بدأ بحوار بين آدميين، ثم عقب بحوار بين نبي شاك مع نفسه لكن الله أظهر ما

بنفسه وأراه عيانا ما شك فيه، وانتهى بمناجاة حوارية بين نبي عالم ورب محاور (الوحي) بأن يسر الله له أسباب الإماتة والإحياء تجربة عملية.

ثانيًا: الخصائص الحواريّة للخطاب الحجاجيّ التداولي في (آيات البقرة ٢٥٨-٢٦٠)

يعد التشخيص والمقام هما الركيزتان في الخطاب الحجاجيّ، كما تعدّ الحوارية أساسًا لكل كلام، ومستوىً من مستويات البعد التداولي في الخطاب الحجاجيّ٢٤.

١- التشخيص:

أولا: الشخصيات

يوجد في كل آية شخصيتان؛ دار بينهما جدال حول الإحياء والإماتة وإمكانية البعث بعد الموت من جديد، حمل هذي الدلالات بنىً لفظية متوسطة الطول .

- إبراهيم (عليه السلام) والنمرود: ففي الآية الأولى يتحاور إبراهيم عليه السلام مع نمرود (الملك)حول الإحياء والإماتة. إبراهيم يمثل شخصية بسيطة فردا من مملكة النمرود تتميّز بفطرة سوية، تعرّف من خلالها ربّه وآمن به، والنمرود ملك جبار يوصف بالحمق٢٥، وقد دفعه غباؤه إلى ادعاء الألوهية (أحضر اثنين من رجاله فقتل أحدهما واستبقى الآخر) بعدما بدأ معه إبراهيم بحجة أن الله هو الذي يحي ويميت. انتقل بعدها إلى حجة أشد إحكاما من سابقتها وهي حجة (أن الله يأتي بالشمس من المشرق) وإن كان النمرود إلها فليأت بها من المغرب (في أسلوب خطاب ومواجهة) «فأت بها من المغرب».
- عزير وذات الله العليّة: قيل أن الشخصية المحاورة لذات الله العليّة كان عزيرًا نبيًا من أنبياء الله، وقيل بل هو الخضر عليه السلام، وتوجد روايات كثيرة على أنه عزيرٌ نبي الله، وكان من خبره أنه مر على قرية وقد طمست آثارها وخلا فيها أنيس وكان راكبًا حمارًا فقال شكًّا في قدرة الله كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟؟ فكانت إماتته هو وحماره آية له، وقيل أن القرية عمّرت في ٣٠ عام بعد موته سبعين عامًا، فرأى القرية على غير ما كانت عليه ووجد حماره عظامًا بالية في حين أن طعامه لم ينتن أو يتغير طعمه؛ فكانت هذه الأحداث دليلا على قدرة الله على البعث ٢٦.
- إبراهيم وذات الله العليّة:ينفي أغلب المفسرين أن سؤال إبراهيم عليه السلام كان عن شك، وإنما يتفقون على أنّ إبراهيم إما أراد أن يزداد يقينا إلى يقينه فقد قال في الآية قبل «ربي الذي يحيي ويميت»، وإنما كان سؤاله عليه السلام ليطمئن قلبه بحصول الفرق بين المعلوم برهانًا والمعلوم عيانًا٢٧.

ثانيًا: خطاب الشخصيات

- مستوى الشخصيات

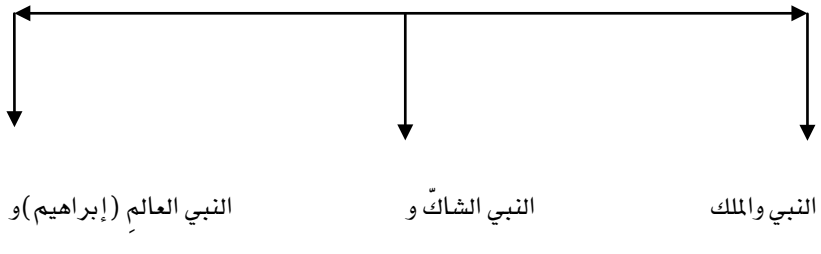

- خصائص الشخصيات المتحاورة

في القصة الأولى: نبي موحّد وملك جبّار غبي (كما وصفه التفسير)

في القصة الثانية: نبي شاكّ يطلب اليقين.

في القصة الثالثة: نبي عالِم بالله يريد بوصوله إلى اليقين برهانًا وعيانًا.

ثالثًا: بنية حوار الشخصيات

جاءت بِنى الحوارات الثلاثة متناسقة مع طبيعة الشخصيات المتحاورة؛ تتناسب ملفوظاتها مع مستوى تفكيرها ومعتقداتها وصفات ذاتها (شخصية الله المحيي المميت).

١- بنية الحوار الأول: النبي والملك

- (استفهام تقريري للقصة) + (وصف للملك) + (حوار إبراهيم مع الملك: استتخدام الفعل (قال) + الحجاج (التحدي بالبرهان العقلي) = نتيجة الحجاج(فبهت))

٢- بنية الحوار الثاني: النبي عزير مع الله

- (وصف لمرور النبي بالقرية)+ (حواره مع نفسه)+ (معجزة الله في إماتته هو وحماره)+ (حواره مع ربه) + (الحجاج (المعجزة) = نتيجة الحجاج(تبين له + إقرار بقدرة الله)

٣- بنية الحوار الثالث: النبي إبراهيم مع الله

- حوار مع الله(طلب إبراهيم رؤية كيفية الإحياء من ربه+ رد الله عليه +جواب إبراهيم+ نتيجة الطلب ورؤية الكيفية) = نتيجة الحجاج (إقرار الله بعزته وحكمته)

بعدما تناولت بشيء من التفصيل المكّون الأول (التشخيص) من مكّونات (الخصائص الحوارية للخطاب الحجاجيّ التداولي) سأتحدث الآن عن المكّون الآخر (المقام) في الآيات الثلاث:

٢- المقــام (السياق)

يحتل السياق مكانة كبرى في التداولية، تصل ببعض الباحثين إلى تسميتهم للتداولية بنظرية (السياق)؛ فقد دعا إلى تسميتها بهذه التسمية صراحة ماكس بلاك٢٨،يُعْنى السياق (المقام) باعتباره شرطا تداوليا بضرورة موافقة أفعال القول لمقتضى الحال والموقف الخاص به؛ أي الترابط البرهاني بين بنية النص وعناصر الموقف الاتصالي، قوام هذه العناصر الأفعال الكلامية بوصفها أحداثا، في حال إصابتها وقبولها وكفايتها وفي تساوقها مع مقاصد المتكلمين؛ تعد فاعلة في تغيير معارف السامع؛ فنعرف أننا نتحدث وننطق هذا النص ونعبر من خلال ذلك عن معنى معين٢٩.

وفي ما يلي اجتهادات في تحليل (المقام) في النص الحجاجيّ في الآيات الثلاث:

أولا: موضوع الحجاج

يشكل موضوع الحجاج المتمثل في (اضطراب استيعاب الإماتة والإحياء) في الثلاث آيات تماشيًا مع مقام النصوص الثلاثة الذي أتى (لتحقيق القدرة الإلهية على الإماتة والإحياء)؛ وعلى هذا أتت محاور النصوص كاملة تؤكد هذا السياق مع اختلاف داخلي طفيف متمثل في الأفعال الكلامية وشخصياته وآلياته الحجاجيّة.

يتميز المقام بذكر وقائع تأريخية وقعت حقيقة قبل حين من الزمن، وقد سيقت في هذا المقام لتكون هذه التساؤلات المطروحة والشكوك في الإماتة والإحياء- مما يدور في أخلاد المكذبين- كافية صالحة لما سيأتي من أزمنة لاحقة.

تنوعت سياقات الحجاج في القصص الثلاث؛ ففي القصة الأولى كان الحجاج مواجهة بين شخصيتين آدميتين

هما إبراهيم والنمرود، وكان الحوار هنا (خارجيا) وجها لوجه أمام جمع من الناس وكانت آلية الحجاج ذهنية وهي الحقيقة الكونية في الشمس، ولعل مقام الملك الأصغر (النمرود)مقارنة بمقام الملك الأعلى (الله) يتناسبان مع هذه الحجة الذهنية أكثر من غيرها من الحجج، ولعل المستوى العقلي للملك أيضا كان يناسبه هذا النوع من الحجاج؛ لما ذكرته بعض التفاسير كما أشرنا سابقا إلى اتصاف الملك بالحمق٣٠ .

في القصة الثانية كان الحجاج حوارا داخليا في بدايته بين عزير وبين نفسه (كما يسمى مونولوجا داخليا) ثم لاطلاع الله على ما بنفس الإنسان حدثت(آليات الحجاج العملية) التي ترجمتها أفعال الكلامية في إماتته وحماره واستبقاء حالة طعامه وإعمار القرية، وبعدها كان الحوار الحجاجيّ حول زمن نومه كما كان يظن عندما بعثه الله، ثم أقيمت عليه الحجج العملية آنفة الذكر؛ لينتج بعدها التسليم التام بالعلم الذي لا يدعو للشك في ما عاينه في نفسه وحماره والقرية والطعام.

في القصة الثالثة كان الحجاج حوارا خارجيا بين إبراهيم المؤمن بأن الله يحيي ويميت وبين ربه (المناجاة)، فليس ثمة شك إذًا في الموضوع؛ ولهذا جاءت آلية الحجاج (عملية تطبيقة ينفذها إبراهيم بنفسه) لأن هذه المرحلة لاحقة للمرحلتين السابقتين .

ثانيًا: علاقة القرائن بالقيمة التوحيدية في النصوص الثلاث:

تظهر لنا القيمة الإيمانية الخاصة بالإيمان بالبعث بعد الموت ماثلة في النصوص الثلاثة، وقد دلت عليها قرائن القول التي تظهر وضعية المحاجّ (صاحب القول) بالنسبة للقول على مستوى اللغة من مثل:

١- السمات الذاتية:

- أسماء الإشارة: إحالات للشخص المخاطِب والمخاطَب، وهي الضمائر المستترة الواردة في النصوص الثلاثة(قال أنا أحيي وأميت)، (قال: كم لبثت، قال: لبثت)، (قال: أولم تؤمن، قال: بلى)....إلخ، وتمثل هذه الضمائر وضعية التحاور بين الطرفين.
- الأفعال الذاتية: هي الأفعال أو الصفات التي يظهر بها المحاجّ رد فعله (الألفاظ الشعورية)، وتقييمه لشيء ما (الألفاظ التقييمية) ،ويظهر هذا في الحوار الكائن بين طرفين ومثاله الألفاظ الكاشفة عن موقف الشخصية المحاورة (ربي أرني كيف تحي الموتى)، (أنى يحي هذه الله بعد موتها) ، ويمثله كذلك الوصف الحسّي كما في :«وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما».ومثال بعض الألفاظ الشعورية مثل (ليطمئن قلبي).

٢- نظام الزمن:

تجلت علامات التحديد الزمني في زمنين: الأول زمن إلقاء الحوار أو الحديث، والآخر في زمن وقوع بعض الأحداث «فأماته الله مائة عام).

ثالثًا: قرائن التنظيم

تعين قرائن التنظيم على معرفة ما يطرح في النص، ومدى تناسق الحجج وترتيبها، على مستويين: خارجي وداخلي. على مستوى التنظيم الخارجي للنصوص فثمة ترابط بين مداخل القصص الثلاث، وانتقال من المستوى المجرد الذهني في عموم موضوع الحوار وتسلسل في الشخصيات ، وعلى المستوى الداخلي فثمة تخصص في الروابط الحجاجيّة الداخلية للألفاظ والعبارات. وقد تحدثنا عن الروابط الداخلية والخارجية في الصفحة (١٠) وما بعدها.

تمثل عبارات الاختتام أيضا جانبا تنظيميا من جوانب التنظيم وقد ذكرنا قبلُ أن القفل بعبارات ثلاث لكل قصة

يتفق مع ما سيق قبلها من حجج :

- فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين: نتيجة تناسب الملك الجاحد الكافر الذي بقي مكذبًا مع حجيّة ما أتى به إبراهيم.
- أعلم أن الله على كل شيء قدير: نتيجة تناسبت مع شخصية نبي يبحث عن اليقين والحقيقة وتناسبت مع المعاينة لمشاهد تجسدت أمامه.
- واعلم أن الله عزيز حكيم: تناسبت هذه الحجة (وجود صفتين لله هما العزة والحكمة) لأنهما يأتيان بعد العلم واليقين والتجريب والمشاهدة لفعل الخلق.

وعليه فإننا نلاحظ أن قوة الختام جاءت متناسبة وأنواع الحجج المسوقة، كما أنها تناسبت مع طبائع الشخصيات التي حاجّت هنا، كما تمثل عبارات الانتقال بين مدار الحجاج إلى النتيجة، ومن قصة إلى أخرى بحجة مثبتة لقضية (الإحياء والإماتة) ما ذكرته سابقا من روابط الحجاج الداخلية والخارجية.

رابعًا: قرائن المعجم

تعكس مفردات النص الحجاجيّ نوعًا من التقابل بين المفردات فتبدو كأنها متضادة أو متعارضة حتى تستبين الحجة وتصل إلى نتيجة؛ ففي الآيات الثلاث نجد الدلالات التالية:

- دلالة الإحياء والإماتة (أنا أحيي وأميت)
- دلالة الإماتة والبعث (فأماته الله ثم بعثه)
- دلالة التقابل في (ربي الذي يحيي ويميت) ويقابلها (أنا أحيي وأميت)
- (انظر إلى حمارك، وانظر إلى طعامك لم يتسنه) بإضمار صفة موت العظام الذي دل عليه السياق التالي: «وانظر إلى العظام...»

خامسًا: الخاتمة

كان لتطبيق تحليل الخطاب في ثلاثة نصوص قرآنية - تمثل ثلاثة خطابات أو نصوص عقدية- عمق دليل على أن التداولية باعتبارها علم استعمال اللغة بحرًا واسعًا خضمُّه يستوعب شتى أنواع النصوص دينية واجتماعية وسياسية وغيرها. وللحجاج في القرآن شأن عظيم؛ فلم أكن أتصور أن تحليلا لثلاث آيات يستغرق مني هذا الكم الهائل من التحليلات مع حرصي على الاختصار والاختزال قدر المستطاع، وهذا بلا شك دليل قبول الخطاب القرآني لتحليله بضروب من النظريات اللغوية المختلفة منها التداولية، كما أنه مملوء بتلك البنيات الحجاجيّة في مجال العقيدة والتوحيد وكما هو واضح هنا في موضوع (الإماتة والبعث).

هذا، وقد كنت أقف بعد كل جانب من جوانب التحليل فألخص نتيجته الخاصة بعد كل تفريع من تفريعات التحليل، و يمكننا من بعد خوض غمار هذا التحليل أن نقف على نتائج عديدة عامّة منها:

أولا: تعد الثلاثة الآيات من سورة البقرة (٢٥٨-٢٦٠) من المدّونات العقديّة التي جاءت على شكل حجاجيّ.

ثانيًا: تنوعت الخطابات- على قصر عباراتها- بحسب تنوع الشخصيات وجاء الحوار متنوعًا بتنوعها.

ثالثًا: تشكلت البنية العامة للحجاج من المرسل والمتلقي وبينهما (مدار الحجاج- الحجج- النتيجة).

رابعًا: تتميز الحجج بوجود الجوانب العقلية الذهنية والجوانب التطبيقية التجريبية على السواء.

خامسًا: تتميز الحجج بالقصر وعمق المعاني ووجود بعض الجوانب البلاغية أحيانًا.

سادسًا: تكثر الروابط الحجاجية الخارجية والداخلية داخل الحجاجات في الخطابات الثلاثة.

سادسًا: ثبت المراجع:

١- بلانشيه، فيليب. التداولية: من أوستين إلى غوفمان، تعريب: صابر الحباشة؛ وعبد الرزاق الجمايعي، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
٢- السيفية، عائشة بنت عبدالله بن مبارك. أثر التوليد الدلالي في ألفاظ الحواس الخمس، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
٣- شيتر، رحيمة. التداولية وآفاق التحليل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية (العددان الثاني والثالث) جامعة محمد خيضر- بسكرة (الجزائر)
٤- علوي، حافظ إسماعيل. التداوليات: علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
٥- مدقن، هاجر. الخطاب الحجاجي التداولي في (كتاب المساكين) للرافعي، رسالة ماجستير، جامعة ورقلة، ٢٠٠٣م.
٦- المقاربة التداولية، المصطلح والمنهج، جامعة قاصدي مرباح- ورقلة- الملتقى الدولي في المصطلح النقدي، ٢٠١١م.
٧- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث، لبنان،الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٨- موشلر، جاك وريبول ، آن. القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة أساتذة بإشراف عز الدين مجدوب، دار سيناترا، والمركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠١٠م.
٩- يول، جورج. التداولية، ترجمة: قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

الهوامش

١ ينظر في: بلانشيه، فيليب. التداولية: من أوستين إلى غوفمان،١٠؛؛ علوي، حافظ إسماعيل. التداوليات (علم استعمال اللغة)؛ موشلر، جاك وآخر. القاموس الموسوعي للتداولية، ٢١؛ ويول، جورج. التداولية،١٣.
٢ علوي، حافظ إسماعيل. التداوليات (علم استعمال اللغة)،٣٢.
٣ ينظر في: بلانشيه، فيليب. التداولية: من أوستين إلى غوفمان،١٤٧.
٤ ينظر في: علوي، حافظ إسماعيل. التداوليات (علم استعمال اللغة)، ٣.
٥ المرجع السابق نفسه، ٤٠.
٦ ينظر في: بلانشيه، فيليب. التداولية: من أوستين إلى غوفمان،١٤٧.
٧ ينظر في: مدقن، هاجر. المقاربة التداولية: المصطلح والمنهج، ١.
٨ ينظر في: الزنّاد، الأزهر. النص والخطاب، ٥٧.
٩ مدقن، هاجر. المقاربة التداولية: المصطلح والمنهج، ٢.
١٠ مدقن، هاجر، المقاربة التداولية: المصطلح والمنهج، ٢.
١١ مدقن، هاجر. المقاربة التداولية: المصطلح والمنهج، ٢.
١٢ رحيمة، شيتر. التداولية وآفاق التحليل، ٣.
١٣ مدقن، هاجر. المقاربة التداولية: المصطلح والمنهج، ٣.
١٤ المرجع السابق نفسه، ٣-٤.
١٥ لمزيد تفصيل ينظر في: مدقن، هاجر. الخطاب الحجاجيّ (أنواعه وخصائصه) تطبيق في كتاب (المساكين) للرافعي، ١٩-٤٤.
١٦ فاهم، سعيد. معاني ألفاظ الحجاج في القرآن الكريم وسياقاتها المختلفة: السبع الطوال أنموذجا، ٩.
١٧ المرجع السابق نفسه، ٩.
١٨ مدقن، هاجر. المقاربة التداولية: المصطلح والمنهج، ٧-٨.

١٩ مدقن، هاجر. الخطاب الحجاجيّ (أنواعه وخصائصه) تطبيق في كتاب (المساكين)للرافعي، ١١١.
٢٠ مدقن هاجر. الخطاب الحجاجيّ في كتاب المساكين للرافعي، ٤٨
٢١ بلانشيه، فيليب. التداولية، ٤٥.
٢٢ ينظر في: السيفية، عائشة بنت عبدالله بن مبارك. أثر التوليد الدلالي في ألفاظ الحواس الخمس، ألفاظ البصر، ٧٤-٧٥.
٢٣ مدقن، هاجر. الخطاب الحجاجيّ (أنواعه وخصائصه) تطبيق في كتاب (المساكين)للرافعي، ١٢٧.
٢٤ مدقن هاجر. الخطاب الحجاجيّ في كتاب المساكين للرافعي، ١١٩.
٢٥ الزمخشري، محمود بن عمر. الكشاف، ج١/٣٣٣.
٢٦ ينظر في: أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٩٧/٣.
٢٧ المرجع السابق نفسه، ج٢/٢٠٣.
٢٨ رحيمة، شيتر. التداولية وآفاق التحليل، ٢.
٢٩ مدقن، هاجر. الخطاب الحجاجيّ في كتاب المساكين للرافعي، ١٢٩.
٣٠ ينظر في البحث، ص١٦.